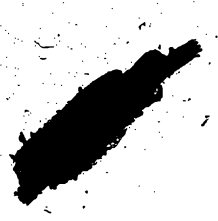
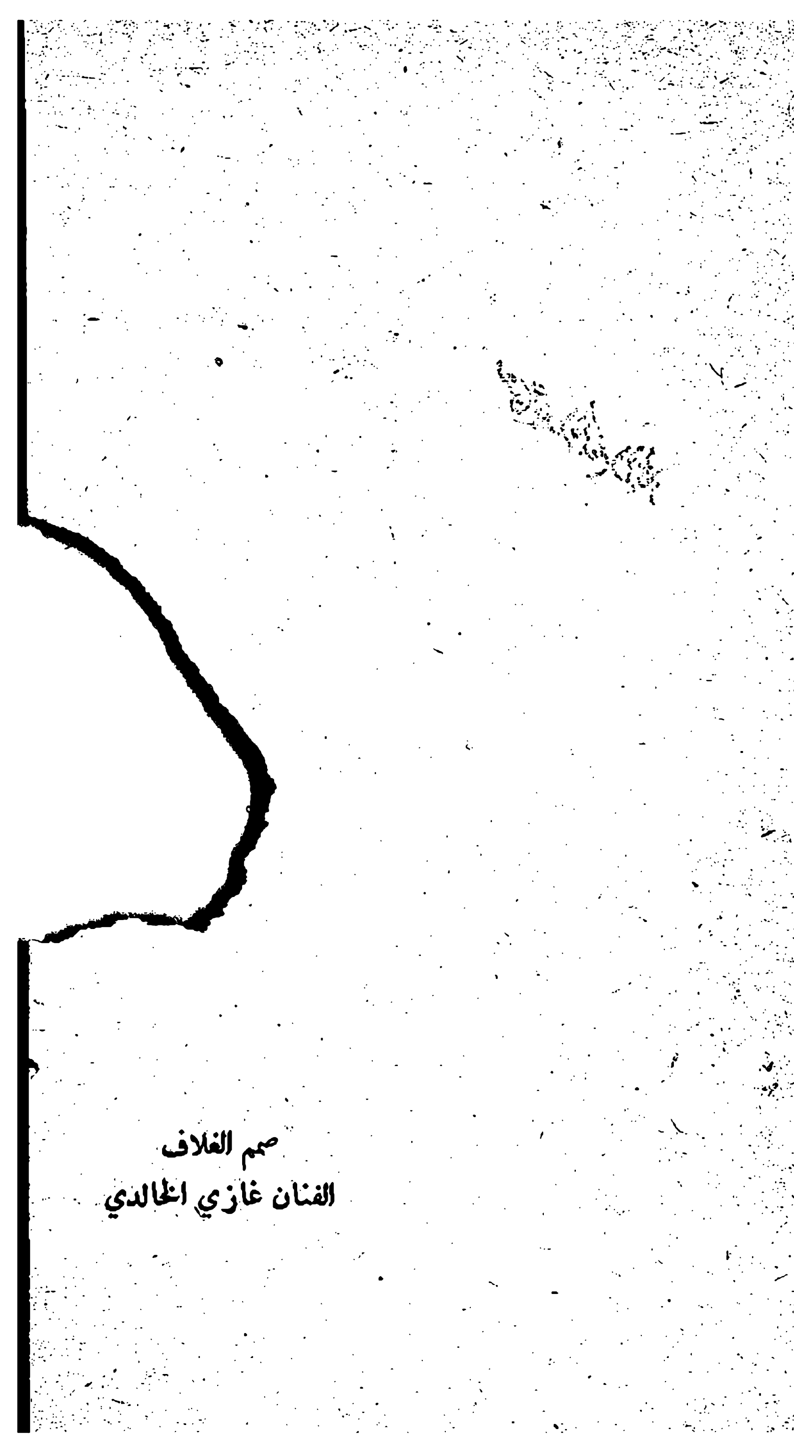

الظل الأخضر
ممدوح عدوان
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

ممدوح عدوان



الظلّ الأخضر

أدبٌ / شعرٌ


صمم الغلاف
الفنان غازي الخالدي

بين الشعر والقراء

خير ماتكتبه هو ذلك الذي تكتبه وكأن أحداً لن يقرأك .. ذاك الذي تكتبه باطمئنان وكأنك تعترف .. كأنك تتعرى .. كأنك تضع نفسك المحملة على طاولة وتشرحها وانت مقفل على وحدتك الباب ونوافذ البيت .. بلا خجل .. بلا خوف .. بلا حساب لأحد .

تدخل إلى البيت وكأنك تريد ان تبكي .. كأنك كنت تخجل من الناس أوتخافهم .. وفي البيت تتناول قلمك وتبدأ عملية التعرية والتشريح .

بعد قليل تبدأ الكتابة بحرية وعفوية .. تنسى كل شيء الا شيئاً واحداً يتدفق كالنزيف .. كالتعرق .. دون اعتصار و ـ يكاد يكون ـ دون ان تدري .

قد يمارس الآخرون عليك ضغطاً ، وأنت في هذه

الحالة ، دون ان تشعر أويشعروا . يمارسونه بحبهم .. باعجابهم .. باستهزائهم .. بأي موقف « تدري » أنهم يتخذونه من كتابتك .

حبهم يضغط عليك دون ان تدري .. انه يمسك بك ويسمرك عند الكلمات التي أحبوها .. عند الأفكار التي يريدونها . واستهزاؤهم قد يدفعك الى تجنب أشياء كنت تريدها وتقتنع بها .. أويدفعك الى طرح أمور لالزوم لها إلا الرغبة المجردة في تحديهم .

مجرد إحساسك بهم ، لحظة الكتابة .. إحساسك بتوقع شخص ماتعرف أنه يترقبك – وليس بالضرورة يراقبك – يجعلك تتعثر .. وتتلعثم وتتفأفيء . كأنك كنت تود السير بخطى لاتدري كيفيتها لأنك لاترسم خطواتك ويشعرك أحدهم أنه يرقب قدميك . عندها لن تستطيع ان تسير سيراً طبيعياً .

الالتزام ؟

هل قلت شيئاً يتنافى والالتزام ؟

ان لم تعط في حالة كهذه أدباً ملتزماً فانك لن تعطي التزاماً صادقاً في حياتك .. وربما لن تعطي شعراً . فالالتزام

ليس استجداء التصفيق . والاهتمام بالنازحين لايعني كتابة قصائد التعزية . هذه ليست وظيفة الشعر . للشعر وظيفة واحدة هي : « الدفاع عن انسانية الانسان في هذا العالم » كما يقول الشاعر فوزنيسنسكي .

والفنان المبدع هو الانسان الصافي . وسعيه نحو النضج هو سعيه نحو هذا الصفاء .. نحو ان يكون « الكل » في نفسه . انه السعي نحو كشف الحقيقة : حقيقة نفسه .. حقيقة كونه « انساناً » .. حقيقة إنسانيته . ولهذا يتساقط الكثيرون في طريق النضج .. وذلك حين ينفصل التطور الشكلي عن التطور في المضمون .. أو عندما تكون أفكارهم الجديدة ملصقة على حياتهم ولا تكون نابعة منها .

الفنان الحقيقي هو الذي يصل الى نهاية المطاف .. هو الذي يغوص إلى القرار .. يصبح هو « الانسان » وليس مجرد محمد أو حنا أو يوسف أو جورج .. يصبح هو الجذر الحقيقي للانسان في عالم من هذا النوع .. في بيئة من هذا النوع .. وضمن علاقات من هذا النوع ..

جميع هذه الشروط المحيطة بالانسان يجب أن يخترقها الفنان . اي أن الفنان ليس – في فنه – انساناً مشروطاً .

إنه قد اخترق شروطه وسبر غورها .. ووصل الى المكان الذي يستطيع منه « رؤية » كل شيء .. واكتشاف هذه العلاقات اكتشافاً واعياً .

وحين يرى نفسه مضطراً ، رغم صفائه ، ان يعيش ضمن هذه الشروط والعلائق التي اكتشفها تبدأ أزمته كفنان .. وتتحدد غربته التي تقضي عليه بالتحدي . الشعر الحقيقي يجب ان يصدر عن هذه الأزمة وإلا كان منافقاً أو مقصراً أو كانت التجربة الشعرية مغامرة نظرية لا ارتباط لها بالحياة .

إن الفنان إذ يكتشف صفاءه .. يكتشف عكر العالم .. وتصطدم صلابة صفائه بصلابة العالم .. وهذا الاصطدام يولد الشرارة المضيئة للعالم : يولد الفن . ومن هنا وجب ان يكون الشعر نتاجاً ذاتياً بحتاً .. وقيمة الشعر تتحدد بصفاء الذات المولدة للشعر .. وبمدى مقدرتها على ان تكون « الكل » : أي التربة التي تحوي جذور الناس .

هذه الشرارة احتراق داخلي .. ولابد لهذا الاحتراق من الخروج إلى المجموع لأنه ناجم عن الاصطدام بهم .. ولابد له من الخروج بقوة تحددها رغبة الفنان في ان يكون مفيداً لهذا العالم .

وحين تقف العقبات أمام الفن تحتقن الشرارة في صدر الفنان وتشكل خطراً عليه . . ولذلك انتحر همنغواي وستيفان زفايخ ومايا كوفسكي ولـــكي لاينتحر شيلي وبايرون وجون اوزبورن هربوا من بلادهم .

ان الفن ينبع دائماً من هذا الصدام .. من الرغبة في أن لايفقد الانسان صفاءه . ويصبح هذا الهم - الذاتي - جذراً لهموم الناس جميعاً .. مهما تغيرت ظروفهم وشروطهم وأزمانهم وأمكنتهم . ولهذا تستمر قيمة المبدعين من أمثال شكسبير وكازانتزاكي والمتنبي والشريف الرضي والحطيئة . إن لديهم الشيء الذي يكمن في كل إنسان . لقد عالجوا هذا «الشيء» ضمن اطار ظروفهم ومراحلهم .. لكننا ما نزال نرى ملامحنا فيهم ومهما تغيرت الأزمة من حب الى جوع الى البحث عن عقيدة .. والى غير ذلك .

ولهـــذا ، أيضاً ، يموت الفن المهتم بالأمور اليومية وبالمشكلات السطحية . إن الفنان الحقيقي لايهتم للملابس المتسخة .. بل يهتم للقذارة الكامنة في نقي العظام وللدماء المنتنة في الشرايين .. ولا يهتم لحاجة الانسان الى لفافة تبغ الا اذا رأى فيها دليلاً على حاجته الى الخبز والجنس والحرية

والوجود الحقيقي. وقدرته على هذا الاهتمام ناجمة عن قدرته على رؤية ما لايرى بالعين المجردة .. ان عينه مركبة .. ولذلك قد يرتمي الفنان في الوحل لكنه لايفقد القدرة على رؤية عكر العالم.. ولذلك بقي رامبو والحطيئة فنانين أصيلين.

★ والفنان يعطي لأنه لا يستطيع الا ان يعطي .. انه لايستطيع السكوت..وعطاء الفنان كالجرب .. كلما حككته كان عليك ان تحكه أكثر ويصبح غير قادر على التوقف عن الحك .. والعطاء .. وحتى لو كان العطاء سابقاً لزمنه .

إن الشعر يكتب لأنه ليس بزمني . إنه قادر على خلق زمنه . والشاعر يكتب لأنه يصبح مثل حلاق الملك الذي كان الوحيد الذي يعرف بحقيقة أذني الملك بحكم مهنته (وكانت للملك أذنان كأذني الحمار) .وخاف ان يقتله الملك إن تكلم ، وضاق بما يعرف . إنه لايستطيع احتباسه في صدره .. فمعرفته لا تعني شيئاً ان لم تصل للناس . لكنه يخاف القتل . فلجأ الى شاطيء النهر . وأخذ يحفر كل يوم حفرة في رمال الشاطىء يقول فيها : « للملك أذنان كأذني الحمار» ثم يردمها .ومرت الأيام فنبت القصب من هذه الحفر. وصار القصب ، كلما مرت فيه الريح ، يصيح : « للملك

أذنان كأذني الحمــار » . فرغبة الحلاق في القول هي رغبة الشاعر في قول ما رآه من جديد .. إنها الرغبة التي جعلت أرخميدس يصرخ – رغم انه ربما كان وحيداً – « وجدتها ! » .

هذه الرغبة هي التي تجعل الفنان يبحث عن الآخرين – رغم انه يتناساهم لحظة يخلو لعملية الخلق – الا ان عملية الخلق ذاتها هي الدليل على البحث غير المباشر عنهم . وحين تختلف سمات الفنانين انما تختلف باختــلاف طرقهم في البحث عن الآخرين .. في البحث عن مادة مشتركة تصل الشرارة عن طريقها اليهم . لذلك كان البحث – اضافة الى الكلمة – عن التاريخ والفولكلور والاسطورة والحوادث اليومية . ان الفن نتاج « الانسان » غير المشروط . لكنه في توجهه الى الآخرين لابــد له من ان يمر بشروطهم . وان كل تطور يلحق بالفن تكمن وراءه حقيقتان : البحث عن الذات الصافية والبحث عن الآخرين .

★ ويمتاز الفن عن غيره من الكتابات المعالجة بأن الفنان حين يخلق – وخلقه دائماً صرخة غبطة اوتحذيرأواحتجاج إنما يخلق منطلقاً من ازمة . انه « في » الازمة ليعانيها و« خارج » الأزمة ليطرحها في نتاجه . ان الصرخـــة كصرخة

أولئك الذين ابتنوا قصراً كبيراً على جبل ـ كما كتب الشاعر الامريكي ستيفن كرين ـ وحين وقفوا في الوادي ليتأملوه سقط عليهم فسحقهم . وقلة فقطهم الذين استطاعوا الصراخ . وهؤلاء هم الفنانون ..

ان قيمة صرختك تتحدد بمقدار ماتحوي من معاناة المجموع المعرض للسحق أو لأنك ترى القصر يهوي وهم لم يروه .. وبالتالي بمقدار ماتحويه صرختك من صدق في انذارهم (وانذار نفسك) . والفارق كبير بين من يصرخ لان ثيابه ستتسخ وبين من يصرخ لأنه يواجه الموت . ان الناس يستمرون في سماع هذه الصرخة آلاف السنوات إذا كانت تحوي في داخلها أملاً « انسانياً » واذا كانت دليلاً على التعلق بالحياة وعلى الرغبة في « الدفاع عن انسانية الانسان في هذا العالم » .

ولكي تحتوي صرختك على صرخاتهم كلها يجب ان تكون ايجابياً ـ في الحدث ـ ومنفصلاً عنه . فالتفاعل الايجابي مع الامور هو عملية اكتساب حرارة ، لكنه ، بالمقابل عملية تقليص الرؤية . هناك خشية دائمة من ان تتحول الى جزء بين مجموعة الاجزاء .. الى جندي في العرض الكبير فالمشترك

في العرض غير قادر على رؤية العرض ككل. عليك ان تبتعد قليلاً لئلا يجرفك التيار .. على ان لا تبتعد الى الحد الذي يفقدك البعد المقدرة على الرؤية أيضاً . أي انك ستحاول أن تبقى في العرض وان تبتعد عنه . كأنك تريد ان تراقب غضبك في المرآة . إن غضبك المنفعل يتلاشى مع المراقبة الواعية . وعليك ان تصفو بحيث يصبح الغضب منبثقاً من وعي . يصبح غضباً واعياً يمكنك مشاهدته في المرآة . وهذه معجزة الفن .

الرغبة في الوصول الى الناس هي سر اهتمام الناس بالفن . كما ان الفن من خلال هذه الرغبة يحدد وظيفته . غير ان الرغبة في الوصول الى الآخرين ، حين تصبح تسابقاً ، يسقط الفن . ان البحث عن القارىء قد قاد الى التدجيل عليه . فوقع القارىء والفنان والفن ضحايا هذا البحث .

لقد أقيم جدار بين الجيل وبين الأفكار الجديدة الجادة . هذا الجدار هو السطحية .. هو تعويد القارىء على القراءة السهلة اللامسؤولة . وهذا يفسر لنا سرعة انتشار القصص الجنسية والبوليسية . ويفسر لنا ، اكثر ، تدفق اكثر من

مئةالف قصيدة حول النكبة الفلسطينية لم تستطع ان تضيف شيئاً الى وعي الناس او الى تطور الفن اذا لم نقل انها اعاقت هذا التطور . هذا النوع من النتاج كان يعتمد على الاطمئنان الى القارىء . او التدجيل عليه . او الاستهزاء به .او استجداء تصفيقه . بحث استطاع هذا النوع ان يهيمن على السوق الأدبية وان يطغى على عقول الناس .

لكن هذا « الفن » - ان صحت التسمية - قد تحول الى وسيلة لتعطيل قدرة انساننا العربي على التفكير والتطور .

ان القارىء لم يواجه بالحقيقة بعد . ولذلك ضاع الشعر والقارىء معاً . ولابد من المواجهة والاحتمال . . لابد من الصبر وبذل الجهود للوصول الى فن حقيقي من خلال قارىء حقيقي .

ممدوح عدوان

١٧ - ٩ - ١٩٦٧

مقدّمة

كان لي طفل بعمر الزنبقه

يرضع الريح ويغفو في المطر

ذات يوم..

هاجت الريح وناشت زورقه

لم يكن يخشى الخطر

ظن أن الريح لن تقوى عليهِ

انها لن تغرقه

عانق الموج فلم أبصر يديهِ

رحت أجري لاهثاً كي ألحقه

رحت أجري ...

ـ كان ظل الموت مرمياً أمامي ـ

خفت أن أعثر .. أو أن أسبقه

رُوِيَ عَنْ الخنساء

تُبَحُّ حناجر النُدَّاب من ندم بعاشوراءْ
يهيم النهر كالمجنون ، والتمساح يسكب فيه أدمعه
ويملأ جوفه المسعور بالحمأ
ولكن القتيل بكربلاء يموت وسط النهر من ظمأ
وآلاف الحناجر كل يومٍ تتخم الدنيا
تؤذن للصلاح وللفلاح .. ولا يمر الصوت في
الصحراءْ
ينبه غافلاً يقضي .. ولا يدري
بأن الفقر ، ان الغدر في الملأ

وأن النار في الدهماء

ويأبى أن يمر الصوت في الصحراء

يودع جثة كانت أبا ذر

لأن الصوت قد تمتصه الرمضاء

فمر جنود هولاكو على أهل القصور

وخلفوا جيلاً من اللقطاء

جميع رجالنا ماتوا ..

وهم يتلون آيات من الإسراء

* * *

مررت على النيام ،

عبثت من أحلامهم

وارتحت في فيء من القصب

فجاء إلي صوتك ، راح يدعوني صدى للثأر في غضب

أتاني ليلة وامتص لي تعبي

فرحت ألوب عن سيف تشرب مرَّة بدمِ

إليكَ أهيم في الصحراءِ ،

أركض خلف ظلي

خلف حد الأفق .. أندبه

فأنكفيءُ

إليكَ حملت ملء متاعي جمراً

أخاف عليه ينطفيءُ

ركضتُ .. ركضتُ حتى تهت عن ساقيّ

وانسلخت دروب الأرض في قدمي

كأني كنت أبحث عن إله ضاعِ في نهر من العدم

صرخت .. صرخت.. حتى ألقيتْ في الرمل حنجرتي

وحتى امتص صوتي من فمي الصدأ

ويهدأ كل من حولي .. فأهدأ مثلما هدأوا

أعزي النفس :

« قد تنبو سيوف الثأر ،

تكبو في الوغى الفرسان »

ولكني أراهم دونما خيل ..

ولا سيفاً لديهم

قد تربع في عروشهمُ .. وفي حرماتهم خصيان

وحين أموت من جوع .. ولا ألقى لديك الخبز

كيف أضن ، لا أعطيك ماعندي من الأسنان ؟

ولكني

يذكرني غروب الشمس بالقتلى

بمن من ليلنا انطفأوا

وتجثم فوق أعيننا وحوش الليل

تأبى الشمس أن تأتي مع الريح

فيغرق في الظلام المر شيطان بتسبيح

ويجهش حولنا فوج التماسيح

يدوم بكاؤهم جيلاً

ولولا كثرة الباكين حولي

ماتعرت نسوة للفاتحين ضحى

ولا اهترأت سيوف الجند في بيتي

ولا قتلت قبيلتنا ابنها صخراً

ولا عشنا بلا شمس

ولا جاء الرجال إلي في أثواب نسوتهم

ليُنسوني صدى ميتي

يكر الدهر لايأتي لنا بغد

فبعد اليوم لا يأتي سوى الأمس

سأذكر ما حييت جدار قبر

لم يخلف نخوة الفرسان في نَفْسِ

* * *

وحين أضن أن أبكي

وأن تنداح « أواهُ »

لأني كنت أعلم عِلْمَ موقنةٍ

بأن قتيلنا المشلوح ،

لم تطعنه في حربٍ سيوف الرومِ

ما أردته في غدر قنا الفرس

أتونا في الدجى ؟

أدري .

وفي الميدان لاقوه .. فلاقاهم

وما قتلوه ، ما صلبوه ،

لكن شبه الجاني لنا اللهُ

وضج الحي يندبه .. فهام صغارنا رعباً

وتاهوا عن مقابرهم

ولولا كثرة الباكين .. ما تاهوا

يذكرني غروب الشمس كيف تضمَّخوا بالضوء .. وانطفأوا

وكيف مضوا

وما طلعت علينا الشمسُ بعدهمُ

وكيف تهالكوا تعباً ..

وكيف الأرض غاضت ..

عندما اتكأوا

* * *

هنا في حانة الخمار ، لا في ساحة اللعب

تبارينا بلا تعب

شربنا من كؤوس الذل ، ما أعطى لنا الخمار أو هدرا

وحتى لاح في عينيه شيء خِلتُهُ خطِرا

ولما هاج يبغي سيفه مني

نسيت مرارة الحرمان والهرب

وفي غضب تملآنا .. وسل السيف ..

وانتحرا

* * *

أيا سمار ليلتنا .. اعذروني

إذ أضعت تسلسل القصَّه

فبعد هنيهة تغفون في أحضان نسوتكم

لئلا تحملوا غصه

وغفوتكم ستسلخني

ولكن..

لن يضير الشاةَ ، بعد الذبح ،

أن تُسلخْ

١٠ حزيران

« يوم القنيطرة »

كانت دمشق صامته

كانت نوافذ البيوت أعيناً مغلقةً

مترعة بالصمت والتعبْ

مشرِعةً راياتِها ترقباً

سلاحَها غضبْ

كانت شوارع الردى تهيؤاً بلا ثمنَ

الريح والرجال والبيوتُ صامتون

منذ أن جاء الصباح

أصابع الرجال قد تعرقت على السلاح
وفي ترقب رهيب يتجمد الزمن
وكلما هبت نسائم القنيطره
تكشفت مفاتن الوطن

* * *

على مشارف المدينه
لاحت لنا القافلة العائدة الحزينه
ولاح فيها الوطن النازف أرضاً ورجالاً وعتاد
كان الغزاة يبترون من مفاصل البلاد
عضواً جديداً في ضغينه
وارتعش التراب مثل الفرس الجريح
وارتعش التراب آلاماً على الوجوه
الموت ألقى ذلك الصباح منجله

فكلهم رأوه

وكل من في الأرض سار نحو الجلجله

بلا كفن

وكلما هبت علينا الريح من أرض القنيطرة

تكشفت مفاتن الوطن

وارتجف الثأر على الجباه واحتقن

* * *

كانت دمشق ليلة الخطر

تغرق في الصمت العنيد

الحزن يسري في عروقها كما يسري الخدر

والدمع جامد على نوافذ البيوت

والصمت في الدروب قاس كالجليد

وكل من فيها استعد كي يموت

وحينما تسمع في بيوتها نداء

تخاله جرحاً .. تخاله لهب

تخاله بكاء

وكلما عاد مقاتل إلى المدينه

يفتح باب في سكينه

يغلق في غضب

يخفي وراءه اللقاء

يرتعش الضوء قليلاً ثم ينطفي

كأنه عصب

* * *

سيل من الرجال كانوا يلعقون الجرح بالسلاح

الوطن الجريح لاتميته الجراح

واختلط الغبار في الوجوه بالتعب

لينطوي الخوف وراء ضجة الغضب

مفاتن الأرض التي تكشفت

شدت لها المقاتلين

لكنها شدت إليها الطامعين

مفاتن الأرض تحولت لمصيده

الريح تجرف الغزاة نحونا من القنيطره

مخاوف الرجال كلها

تذوب في أكفهم عرق

مخاوف الرجال قد تحولت قلق

وأرضنا التي تعرت تفتن المقاتلين

كزّت على أسنانها

في رجفة المخاض والأحزان

وانتظرت ..

وفي الصخور انتظر البركان .

١٠ حزيران ١٩٦٧

مَرثيـــة

أنت لاتدري .. ولا أدري ..

ولا يدري أحدْ

أين كانت هذه الموسى ؟

ولكنا أفقنا

ذات يوم .. فبهتنا

إذ رأيناها بحلقِكْ

ورأيناك مع الريح هشيماً

لايرى فينا سندْ

فجبنّا .. مامددنا لك يدْ

* * *

ذات يوم .. أيقظتنا قدماك
عندما سرت إلى المربط وحدك
وسرجت المهر .. واجتزت الديار
وتساءلنا : لماذا هام ؟

هل أضناه شوق لحبيب ؟
أم تراه .. هربا ؟

وانتظرنا
وغفونا .. وأفقنا .. وغفونا
ونسيناك وعشنا أشقياء .

* * *

وانتبهنا
ومسحنا النوم عنا
وعن الأجفان خيط العنكبوت

فمع العتم سمعنا خببا

فخرجنا

وإذا مهرك يدنو تعبا

خالي السرج ، على السرج دماء

ثم أحنى رأسه صمتاً ،

وبيتي انتحبا

أترى تسمع لو أطلقتُ في الليل نداء ؟ !

في الطريق

« الى فتاة من القنيطرة »

رأيتكِ أمس عابرة

وكنتِ غمامة بيضاء تغمرني

مررتِ ، وكنتِ ترتعشينَ

مثل نوافذ الأكواخ في المطر

لففتِ الغربة السوداء شالاً باكياً

ومضيت بين الأهل والمحن

وغلّفتِ البكاءَ ببسمة صفراء ..

كالمدنِ

* * *

٥

عبرتِ .. وكنتِ ناعمة .. وقاسيةً

عليَّ كقسوة الريح

أحاطت هالة الشهداء والأيتام عينيكِ

عبرتِ مليئة بالدمع في خفرِ

ضباباً مثقلاً في غابة الشوح

دموعك ملء حظوك ملء خديكِ

حقنتِ تنهدات اليتم في ألمِ

كما تتكوم الأنسام في الأيكِ

حملتِ دموع من ماتوا

حملتِ صفاءهم

وحملتِ أحقاد المجاريح

وجئتِ إليَّ أول من يجوس الأرض عن نوحِ

* * *

رآكِ الأصدقاء ، وحدثوني عنكِ ،

قالوا : كنتِ كالجرح

وكنتِ الثأر للجرح

وكنتِ ضماد جرح راعف سمح

نزيفاً صامتاً .. في زمهرير الحزن عذبني

رأوكِ وحدثوني ..

كنتُ قد أطفأتُ صوتكِ

في ضجيج الغانيات

وظلمة الحانه

فعدتِ إليّ رائحة من الأرضِ

غناءً متعباً ضيعتُ ألحانه

ولم أجرؤ على طرح السؤال ،

ورغبتي كالقيظ تخنقني :

ترى .. كيف الجبين ؟ وضحكة العينين

بين الدمع والمحن ؟!

ترى مازال في قسمات وجهك بؤس أرملة

وغبطة طفلةٍ سمحاء كالمزن ؟!

أيا ماضٍ تعتق ذكريات ..

وانتهى رعبا

هنا كنا ندوس على الطريق .. ولا يُرى من خطونا أثرُ

ولكن الطريق يظل كالحبلى :

يموج بنا .. وينتظر

ونحن نموت .. والأضواء تحتضر

وأنت كدمعة تسرين حائرة بلا خد

أود .. أود .. لو نزلت على زندي

* * *

وكنتِ يتيمة قبل المآتم،

كيف أصبحتِ ؟

لو انك مرة في الحلم لوّحتِ

قتلتِ لديَّ حتى وقفة الطاووس والديكِ :

« ما هي بشيل الفشَكْ »

« وصفوف هين وهين »

« الرّجال يخلِّص شوقه »

« من بين طـــابورين »

ندهتك مرة لما على أبوابنا لحتِ

وأغلقت الكوى.. وصفقت أبوابي لأبقيك

ولكن التراب انساح من تحتي

مررتِ كما يمر الظل في أسمارنا ليلا

حلمتُ بأن أراك لكي أهدي رعشة خفقت بكفيك

يضيءُ الخوفُ لي دربي .. ويبعدني عن الخطر
فأمسح ذلك الخوف الذي يبكي بعينيكْ
وأنتِ سخية عزلاء .. كالمطر

* * *

بحزنك تشربين طفولة الأيام واليتم
ويأبى الجلد، تأبى الأرض شرب الدمع والحلم
فتجتمع الدماء وتضرم النارا
أرطّب من نداك جفاف أحلامي
وأحميها .. لتصمد إن لقت خطرا
وتولد منك آلامي رؤى مشدودة سمرا
تضوّيء درب من وسط الدجى عبروا
ومن كنا بكيناهم
وننهض وحدنا،

وعلى الجراح نقوم نتكيء

ونبتدىءُ

فتحمرُ السماء بنا .. وتنهمرُ

ويلتفت الطريق اليّ ..

والشجرُ

الطاووس

فهمت اليوم صمتكِ والأسى المخزون في عينيك كالعتب
ودمعك حين تبتسمين في طرب
فهمت اليوم ما معنى انتشاء الناس بالأحزان والخمر
لماذا كان خلف حياتنا ذاك النشيج المرُّ
مستتراً بلا صوت
لماذا كنت صامتة وباكية بلا سبب
لماذا لم تجيبيني .. وقدَ ناديت أجيالاً ولم أفهم
فنحن ، الجيل ، كورس مأتم مبهم
ونحن نعيش أمواتاً

ونرقص في أسى من نشوة الموت

« نسوان بكيت خجل »

« تاهت عـــن دروبا »

« وشباب متل النخل »

« ع الجيش مسحوبا »

كأنك قد رأيت بعمري الشيء الذي أخفيه عن نفسي

رأيت وراء صوتي في الغناء ، وحينما أطرب

بأني قد خسرت العمر ،

ان خسارتي قدر بلا مهرب

فدائي في شرايني

واني قد خسرت غدي

وشخت ولم أجاوز بعد عشريني

خسرت ودون أن ألعب

« وثار مصيبـتي بالجسم لذعت »

« ولو ينفع دعاي الله لدعيت »

« ولو يشفي بكاي الحزن لدعيت»

« الانس والجن يتباكوا سوى »

ولكني ..

وحيداً حائراً أقف

مليئاً بالمتاعب ،

رغبتي في النوم تخنقني

كأني ميت ملقىً بلا كفن

ودون غدٍ ولا حتى انتظار غد

كأني جدٌّ إبني ، جد اخوتي الصغار ،

وجد نفسي : خلفها أقفُ

وحيداً وسط صحراء

وليس سوى سراب كله صلف

بلا درب .. بلا أفق .. بلا آثار خطوات

وحيداً ليس لي هدف

وأبلع ذكرياتي كالعناكب تستعيد خيوطها

وتغوص في العفن

اذا ما أرعبتها هجمة الأعداء

وها أنذا مليء المحجرين دماء

لأني كلما أوغلتُ في الماضي

أتوه بزحمة الأشلاء .

كذبتُ عليكِ لما قلت ان الخيل تعرفني

ويعرفني كذاك الليل والبيداء

وان الناس ، كل الناس ،

ان أضع العمامة يعرفوني

فارس التاريخ والصحراء
واني ان أضع تلك العمامةَ
أفتقدُ كالبذر في الظلماء
أنا كذبابة خسرت جناحيها
فلا نقص الذبابُ ،
ولا أضافت في عيون النادبين بكاء
زهوتُ وكنت أحمل في دمي وطني
وسرت به طويلاً لم يكن في السير والضوضاء يتعبني
ولم أحسب حساب الريح والرمضاء
ولم أحسب حساب الموت والزمن
لأن عمامتي عندي :
متى أضع العمامة يعرفوني
فارس التاريخ والصحراء

ولما ذاب عني الثلج ، غاصت جبهتي في الوحل

ثم غرقت في أبد من النتن

وعدتُ اليكِ منهوكاً

وكان الجلد ، حتى الجلد ، يتعبني

وخلفي مُدَّ خيطٌ من نزيف الأرض والوطن

* * *

ولكني

بحثت ولم أجدك ، فكيف قد ضعت ؟

وأنت المرفأ الباقي ..

وأسخى من سيبكيني

أأنت هنا ولا ألقاك ؟

أم ذبت ؟

تراك سبية صرت ؟

وأجذية الغزاة تدوس ماصنت
وأنياب الغزاة تروح تنهش
ما سألتُ ولم تجيبيني
بودي لو أرى عينيك في حلمي الى حين
ففي عينيك آلاف من الأموات
أحسدهم على الموت
ووجهك ، رغم هذا الحزن ،
هذا الصمت ،
أحسده على الصمت

* * *

ركضتُ اليكِ كي ألهيكِ ، كي لاتسألي الخيلا
لئلا تسمعي قول الذي شهد الوقيعة
انني قد خضتها طفلا

وان غنيمتي كانت بها ذلا

ومعذرة

أريدك أن تظلي الدهر جاهلة بما حلا

قفي .. ولتقبلي ذلي

وفي أفيائه عيشي

لأني كنت طاووساً

وقد عُرّيت من ريشي

الميت

بلا مقدماتْ

الفارس الذي تعلّقت به آمال هذه القبيله

قد جال جولة ومات .

قد كان أسمر المحيا

كان شرقي السمات

وكان في العشرين مثل النخلة الطويله

لكنه ماجال إلا جولةً واحدةً .. ومات

* * *

رأوه في سيناء كان تائها

يبحث عن سراب

رأوه في تلالنا يدق كل باب
رأوه في القدس وكان هائماً بلا ثياب
مع النساء الهائمات
وبعدها هوى ومات .

* * *

مات ولم يجاوز العشرين
لكنه كان بلا أسنان
وإن تكن عيناه كالسكين
فالشعر شاب قبل أن يصول في الميدان :
لأنه عاش على الدموع
لأنه ماكان قد أتقن إلا الصوم والركوع
لأنه ظل يعيش بيننا ..

ولم يكن يجوع
لأنه عاش على زاد المغاره
وشال بالعَرْضِ جراحه وسُلَّمه
كي يأكل الحجاره.
رأوه حين مات بينهم ولم يروا دمه
رغم تحطم الجبين والضلوع
والجمجمه
وأقسموا ..
جراحه مانزفت إلا المراره
وحاولوا رثاءه .. ماوجدوا له عباره

* * *

هذا الذي ربته أمة لثأرها
وكان منة السماء

وعاش بيننا على قميص عثمان وبعده الحسين
قضى حياته .. قضى عشرين عام
يطارد النساء
ويدفن الهموم في الحانات والظلام
يدخن الحشيش والرياء
يعشق أنثى وهي لاتحبه
فيطحن الهواء
عاش ومات لم يكن يتقن إلا النوم والكلام
تدفعه أية نسمة الى الوراء
تدفعه أية نسمة إلى الأمام
كأنه بلا عظام
(معذرة ..
ويتقن الشعر وأكل الزاد من بيوتنا

ويحفظ الحكايا
وكان يتقن الجدال في «القضايا»
لعله ينال إعجاب الصبايا)

* * *

ذاك الذي مات ولم أبك ولم أحزن عليه
قد أولد الأحقاد والآلام طفلاً
ظل كاللقيط في مغاره
وقد رأيت مرة علامة بين يديه
قرأت شيئاً غامضاً في مقلتيه
كأنه بشاره
أنا سأنفض الغبار عن جبينه ، ومن أعصابه
سأعصر المرارة
فانني أخاف أن يموت

أخاف أن تخنقه خيوط عنكبوت

فينطفي

ولا نرى في دربنا إشاره

ولا نلاقي في رثائنا عباره

العــائد

ذات يوم

عاد للحي وحيداً

أشعث الشعر ،

طويل الذقن ،

مخضوباً .. مغبَّرْ

لم يدعْ كرمى لعينيها جحيماً في قتال

لم يدعْ رعباً طوال الدهر إلا عَرَكَهْ

قيل: عاد.

فانبرت من بيتها تلقاه

تبكي الفرحة الكبرى بعينيها
وتسكر

حضنته :

« يسلم السبع لنا
يسلم الزند ويثأر
آه ما أحلى غبار المعركه
آه كم أعبد أتعاب الرجال »

حضنته ..

حضنته ..

تركته ..

فهوى :

غرزت في ظهره المتعب خنجر .

الظلّ الأخضر

.. وارتمى ظلكَ في الباب غريباً

فارتعشنا

وهتفنا :

« أيها العابر حول !

« من تراك ؟ »

وخرجنا ..

لم يكن في حينا شيء سواك

غير أنا

ما وجدناك ولا إنس رآك

* * *

.. ونسينا ظلك الأخضر فوق العتبه

ومضينا .

مرة أو مرتين

قلت في سري : « آهٍ لو عرفنا طلبه »

وارتمى في الباب يوماً

فدهشنا

وارتعشنا

وندهناك : « تفضل

« يا هلا بالضيف حوِّلْ

« بيتنـــا بيتك حوِّلْ

« نحن أسرى في يديك »

وخرجنا

كلنا شوق إليك

كم وددنا لو رأينا مقلتيك

فبهتنا

لم نجد في الوحل بقيا قدميك

ورجعنا

هبت الريح .. هربنا

كلنا يبحث في وجه أخيه

عله يبصر معنى

عندها ضجت مزاريب البيوت

وبكت أمي إشفاقاً عليك

ثم قالت :

« ويل من يسري بهذا الليل في أي طريق »

* * *

جاءنا صوتك في كانون ليلاً

غاص بين الريح والعتم

وفي الباب تلاشى

كنت تشكو أنة قبل الولاده

قبل لقيا والديك

وحدسنا :

أنت خلف الأفق

ــ أو فوق الغيوم السود ، لاندري ــ تغني

أنتَ !!

من أنتَ ترى ؟

من أي دنيا قد أتيت ؟

ما الذي يُبكيك وسط العاصفة ؟
وارتمى ظلك في الباب ..
بهتنا :
نحن في كانون ليلاً
لا تُرى الكف ولو غاصت إلى قعر العيون !!
كيف جاء الظل ؟
خفنا :
أترى ظلك يشتاق لبيتْ ؟
أم ترى أنت على الباب ارتميتْ ؟
وبكينا
ثم متنا !!!

* * *

عندما رحنا لرضوان ، طُرِدنا

وإلى النار بردنا

قال رب البيت : « فيم العجله ؟ »

ثم عدنا

لم نجد مأوى ..

تساءلنا : « ترى أين نموت ؟ »

« وإذا عدنا إلى أي البيوت ؟ »

في الدروب السود تهنا

ونهشنا

غير أنا ما ارتعشنا

وارتمى ظلك في الباب ..

فعشنا

لقيط

..

ذات يوم ..

بينما الشمس تغيب

وطيء العتبة طفل

شاحب الوجه كئيب

* * *

هلّ من وجه أبي ألف سؤال

وارتمت أمي تلاقيه بنشوة

ــ كل عام تلد الأم رضيعاً .. فيموت

وتنوح القرية العمياء في كل البيوت ــ

كل من في البيت لاقاه بنشوه

ماسحاً من مقلتيه الحزن .. دفقات النحيب

كان يبدو أنه طفل غريب

كانت الأرض بساطاً من بياضٍ

مد في الأفق الدروب

غير أني ..

لم أجد فوق ثلوج الليل آثار قدم

وأتانا دون أن نسمع صوتاً

كان في عينيه دفق من ألم

* * *

جاء في عينيه ألغاز وفي الوجه بشاره

ودموع سكبت من حزننا الصامت في ليل المغاره

وأمام الباب مالت ركبتاه

فتلقَّته يدا أمتي وقالت :

« ها هنا ينهي مساره »

وهي تحميه بأسماء الإله

« دثروه ..

إنه ، يامهجتي ، مازال طفلا

ساقه الله إلينا .. ليعزي فيه ثكلى »

* * *

مر ليل لم نذق فيه السبات

كانت الأحداق ترعاه ، تجس النبض ،

تصغي كل ساعه

وبصمت الليل صلينا .. وزدنا التمتمات

« يا بقلبي ..

أصفر الوجه ، وروحي

أي شيء في دروب الليل راعه ؟
انظروا — يامهجتي —
قد أغمض الجفنين .. أغفى في وداعه »
وتلونا الصلوات
كل مافي البيت أضحى صلوات
صلوات ..
صلوات .

* * *

زقزق العصفور في الدار
ودبت في حناياها الحياة
فَتَحَتْ أمي للشمس جميع الثغرات
بدّلت أثوابها السوداء ، واختالت لتشدو
— وهي تدنو منه نشوى —

« آه ما أحلى الحياة »

أمسكته ــ زغرد العصفور في الدار ــ

وهزته بنجوى

جاءنا صوت أبي : « رباه ما أحلى الحياة »

وأتاني صوتها همساً كليلاً : « مات .. مات !! »

زقزق العصفور ،

ما زال أبي يجمع إكليل الزهور

وهو يشدو : « آه ما أحلى الحياة »

١٩٦٢

السّؤال

« الى صديق منتحر »

صارت لديك أحرف السؤال واضحه :

« تكون بيننا هنا ، أو لا تكون ؟ »

كبالع السكين قد وقفْتْ

فإن أحرف الجواب جارحه

ودائماً كل الجراح فاضحه

* * *

كبالع السكين قد وقفْتْ

وبعد أن عرفت ما عرفت

ودونَ أنِ تومي لنا تحية الوداع

طأطأت رأسك المليء بالصراخ ، وانصرفت

قد كنت ظامئاً

وكانت المياه كالبحار

لكن أنفت

فغصت في القاع إلى القرار

نزلت حتى لاح في ملوحة المياه شيء كالصفاءِ

فاغترفت

شربت علقم الصفاء كله .. وما ارتجفت

* * *

يا مترعاً بالزيت في مشوارك الطويل ، قل لنا :

لم انسكبْتْ ؟.

واليوم قد نضبْتْ !

بحثت بيننا طويلاً عن طلاء

فحين لاح ضوء حانة على الطريق ،

ملت نحوها .. شربت

وحينما صاح بنا الحادي إلى الرحيل مرة :

« هنا اركبوا » ركبت

حين دعت صبية إلى حب .. حببت

بزغت في السماء مثلنا ..

وفي منتصف المدار همت راكضاً

حتى غربت

وذات يوم كنت تشتم الحياة

وكان ذاك عندما غضبت

وكنتُ أدري أن كل هذه العطور

لن تضمخ الدماء المنتنه

لكنني ..

وقد رأيتك ارتميت بيننا .. ارتعبت

* * *

ياسابحاً وراء مايراه في عيوننا الرمد

كيف اكتشفت مركب الظنون ؟

كيف رفعت ذلك الشراع نحو مرفأ الأبد ؟

حين انسللت من قيود ذلك الجسد

وضمك الموتَ إلى الحضن الحنون

حين عزمتَ هائجاً أن لاتكون

وحينما طأطأتْ رأسك المليء بالصراخ ، وانصرفْتْ

فاجأني السؤالُ :

هل هربت ؟ أم وقفت ؟

هل سرت وسط الضوءِ ؟أم هل ساقك الجنون ؟

هل صرت موجة ؟ أم ارتميت في الزبد ؟
معذرة ـــ أخي ـــ أنا لابد أن أكون
أنا هنا . .
لو لم يكن أحد .

العابرون كالرّعد

رأيتكمُ

وكنتُ مغمّساً بالصمت والأتعاب والبردِ

وكنتم تعبرون الليل كالرعدِ

رأيتكمُ

سنابلَ في طريق الجوع ، رائحةَ التنانير

جياعاً .. يارفوف النحل ، حين يطالها الغرباءُ

تلسع لسعة لتموتْ

حفاة .. تزْحَنُون الصخر بالأقدام والأيدي

وفي عرق الجباه عجنتموهُ

وفي توهج جبهة من جبهة أخرى

خبزتم ماعجنتم .. كان وجبة قوتْ

رثيتُ لجوعكمْ ..

فصفعتمُ ضعفي بحمد اللهِ :

« خير الله كالبحر »

و « حمداً للإله فكم نرى من فوق امتداد البر من صخرِ

« وكم أعطى لنا من قسوة الأيدي

« غرقنا في ظلام الليل أجيالاً

ونحن ، اليوم ، نصمد في طريق الليل كالسد»

* * *

سمعتكمُ

وكنتم تعبرون الليل كالرعد

حوافر خيلكم ؟

آم نبض أذرعكم

يرج الليل بالحقد ؟

أصيخ السمع : أرتجفُ

وأرقب في ضحى أحداقكم غبق الليالي راح ينكشفُ

وماتت صرختي

(وودت لو عادت إلى حلقي) :

صرختُ ورفقتي يوماً

لضيق الأرض ، قلة ساكنيها

فجئتم من وراء الليل ،

كنت ظننتُ فيه نهاية الدنيا

* * *

هنا عشت الظلامَ ،

صنعتُ سجني منه ،

أترعت العظام ظلامْ

وكومت الجليد ، صنعت ما أبغي من الأحلام

فعاشت كالبغاث ، وعشتها بطراً

كخفاش تخيل أن نور الشمس عن دنياه منصرف

وأترعت الحنايا لوعة .. تعبا .

هنا تأتي النساء لتطرق الأبواب بحثاً عن لقاء فحولْ

ويصرخ في أزقتها يتيم لايرى في العابرين أبا

وفي كل الأزقة لانرى أحداً سوى الأغرابْ

ويأتي بائع بالخبز حتى البابْ

ونعشق في السراديب التي

ما أرضعتنا غير دفق الرعب والحمى

ونتعب من ترقب نسوة الجيران

ونتعب من حياة .. نحن خلناها بلا أحزان

ونتعب من بناء سجوننا في العتم

ثم نروح نلعن هذه الجدران

بحثنا عن معاني عمرنا جيلاً

فمن مبنى .. إلى مبنى

وكنا باحثين بجذوة التنور عن ورد

وجئتم في عروق الموت نبضات من المعنى

وكنتم تعبرون الليل كالرعد

حفاة تزحنون الصخر بالأقدام والأيدي

* * *

رأيتكم

وكنتم عائدين مع الغروبِ

وحولكم وهج من التعب

وأجراس الطريق ترن ..

تسكب فوقكم ألقا

خطرتم في حياتي كالوميض

فبان لي هربي

بصقت على حياتي المسخ في الظلمات كالديدان

بكيت لوهلةٍ أني سجين زجاجْ

وحين أهبتمُ بي أن أجيء إليكمُ

ذابت ثلوج السجن والسجان

نهضت فذابت الجدران

مشيت إليكم طفلاً تعثر بالكساحِ ،

فكنت بينكمُ « كعيب الشُومْ »

فراغاً نيئاً في صخرة صلده
نفختم في عروقي ،
ثم سرنا نعبر التاريخ كالرعد
خفاة
نزحن الأيام بالأقدام والأيدي.

کلماتِ اُخری

فرخ الكوكو *

عندما أجهش مزراب الحديقة

عندما نقّر شباكي البَرَدْ

لم يكن عندي أحد

فدفنتُ الوجه في ثلج فراشي ..

وبكيت

* * *

عندما تمطر أحلاماً على بيت الخشبْ

(*) الكوكو : طائر لايبني عشاً : يلقي بيوضه في أي عش يلقاه ثم يتركها ويمضي .

تجمع الأَم بنيها
تغلق الأَبواب ، يهذي عندها سوط اللهب
يهجع الأَطفال ، يأتي الزائرون
ضحكات

تشرب القهوة ، تنهال الاماني :
« عندما يرجع غائب »
عندما يمضون ، تبقى وحدها أمي وتبكي
ثم يهمي الصمت في البيتِ ،
ومن جدرانه ترشح في الصمت الحكايا
يحلم الاطفال أن يمضوا إلى حيث مضيت
ثم يبكون .. ولا يدرون أني قد بكيت

* * *

بين أحضان الظلام المر تبكي الام حباً وعباده
وأب يمسح دمع الفخر يزهو :

« إنه صنع يدينا

إبننا ـــ قرة عيني ـــ

لم يزل يضرب في الأرضِ ،

غداً يأتي وفي يمناهِ تأتينا وسادهْ

إبننا يحصد أمجاداً .. ويمضي

يأكل الغارَ ، غداً يأتي إلينا

إبننا شبَّ كأطفال الحكايا

صار ـــ يخزي العين ـــ حلماً للصبايا »

* * *

في صباح العيد أنهيت قصيده

طفت لم أترك زقاقاً في المدينه

لم أجد أماً .. كشحاذٍ أدق الباب .. أقعي

فوق أو حال الرصيف

« ماتريد؟ »

بوجوه لم تعد تضحك حتى للرغيف

ـ « لم أنم ليلة أمس

لم أجد ـ ياخالتي ـ أي رفيق

فقضيت العيد في غزل قصيدة

أترعت .. واكتنزت .. لكنني

لم ألق من يسمعها

إعصريها »

يصفق الباب بوجهي

وألاقي شاعراً آخر يمشي في عناء

فتواسيه القصيده

ومن الشحاذ للشحاذ حتى قابض الأرواح مشوار القصيده

تغلق الأبواب،

يبكي العيد .. للبيت أعودْ

غرفتي ترشح بَرْداً

وفراشي منهك الوجه بليد

* * *

أجهش المزراب في الليل ،

فهزّ الحزن في وجهي بَرَدْ

شهق المصباحُ ،

لم تبق لديه ، يومها ، قطرة زيتْ

شهق المصباحُ ،

في العتمة والبرد خمد

لم يكن عندي أحد

فدفنت الوجه في ثلج فراشي ..

وبكيت

العـائد

لم يطارده جنون البحرِ

لم يلسعه سوط الشمسِ ،

في تيه الصحارى

عندما عاد إلينا

دون أشواق .. ولا نجوى لدينا

لترد القلب من ساح المجره

لم يزل كالهمس : أنى شاء طارا

كم تساءلنا وراقبناه كي نفهم سره

وتهامسنا حيارى :

« ما الذي يبغيه مجنون لدينا ؟! »

لم يكن يربطنا حبل مسره

غير أنا

عندما فر .. ترامت وحشة الموت علينا

وبكينا .. عندما عاد ولم ينظر إلينا

* * *

لم نحمِّل خلفه يوماً نسيم الليل نغمه

لم نسائل عنه نجمه

لم نقل سراً ولم نحلم : « ترى هل سيعود؟ »

عاد في إطلالة الفجر لكي يبلغ عشه

وهو يدري

ان ريح الموت لما عبرت

لم تخلف فيه قشه .

المَمْسَحَة

كانت لدي ممسحه
أدوسها متى أشاء
كي لا ألوث الأثاث في بيوتنا
أو في بيوت الأقرباء
كانت إذا مادستها (وحينما أرص فوقها الحذاء)
تئز ماء آسناً
وأستريح ، دائماً ، لما تبديه من خضوع
كنت أباهي بوجودها جميع الأصدقاء
وذات يوم حين دستها

فاجأني صوت كأنه توجع مريع
أحسست نبضها يمر في الحذاء
يهزني .. يصعقني كالكهرباء
كأنني سمعت صوتاً .. نهدة
مكبوتة البكاء
طأطأت رأسي وانحنيت
كأنني أهم بالركوع
نظرت صوب موطيء القدم
فاجأني نهر من الدموع

الأغنية الأولى

أتيتكِ مبهم الكلماتِ ،

لا أقوى على الإفصاح .. فاستمعي

إليك جررتُ أحزاني

من الحانات والأمطار .. فاستمعي

لأنك ، منذ أن كُوِّنتُ ، كنتِ معي

أتيتك مترعاً .. لم أدرِ ما أحكي

فهاتي صدركِ المرشوش بالأفراح ، كي أبكي

* * *

أتيتك حاملاً ألمي

وصوت الجوع يعول في شراييني

ويجهش في ظلام دمي

فإن يبست حروفي قبل أن تنهرَّ ملء فمي

وإن لم تنطق الكلمات فاستمعي

لأنكِ ، منذ أن كُوِّنتُ ، كنتِ معي

* * *

أتيتك من مهاوي الرمل والحمأ

وفي عينيَّ شيطانان خلف حنين منطفيءِ

رأيتك في السراب ، فجُنَّ ماضٍ كنت أجهله

وجئت فبللي ظمأي

وهرِّي عن ضلوعي السود ما كوَّمتُ من صدأ

* * *

رأيتكَ في التمام الضوءِ ، في إغفاءة الزمن

فجئت إليك ملهوفاً لأن الضوء يرعبني

أضعتك في الصحارى ،

وابتليت بحرها وحدي

فساقتني إليكَ رياحْ

حملت إليك في الأضلاع رمضاءً ونزف جراحْ

أنا ابن الليل ،

كان الليل مملكتي ،

أتيتكِ حاملاً رعبي ،

لأنَ الليل خلف الصمت ،في عينيك ، دون صباحْ

* * *

رأيتك بين أمواج الضياع وصخبها

ومضاً من الصمتِ

وفي عينيك إجهاش بغير دموعْ

وذاب إليك حرمان من الأَجيال أخزنه :

فأُجفْلتِ

وكنت أعد في الماضي نجوم الحزنِ ،

أستجدي .. أهزّ ضلوعْ

أتيتك غيمةً محقونة بالحزن من جبلي

فذاب الحزن في عينيَّ قطرة جوعْ

* * *

أتيتك سندياناً ظامئاً

وحدي بغير جذورْ

وأنت أميرة لجزيرة الأوهام خلف بحورْ

تركت ورائي الدنيا

وجئت لصدرك المرشوش بالأحلام كي أبكي
أتيتك مترعاً بالصمت والأحزان ،

فاستمعي

لأنك ، منذ أن كُوِّنتُ ، كنتِ معي .

الأغنية الثانية

« غراب في دوامه »

دعاني من جفاف الوهم صوتك مترعاً نسغا

فجئت إليك :

ملء عظامي الصفراء أرصفة

وفي عينيَّ يحترق الهوى مبغى

أتيت معبأً بنعاس أجيال

بوجه مَعَّسته سنابك الصخب

وخلف جنوني الصفراء أوردة

حرقت يباسها تبغا

قضيت العمرَ في الأوحال ،

في كوم بلا عنبِ

أصارع أمسي الجائعْ

نسيت لديك آمالي ..

وحِلمي أن أكون أبي

وجاء هواك بعد تلملم الضوء

فهزَّ الصمت ، وانهمرت عليَّ رؤاك في عجب

تدغدغني

وتفسدني :

كزهت رطوبةَ الطرقات في المدن

وضوءَ أزقة الحانات في بدني

وكانت لي .. وللأصحاب مزرعة

بها كنا نصارع أمسنا الجائع

أتيتك إبرة عريانة تعبى

فكنت غطائي الضائع

* * *

أتيتك مثخناً بجراح ماضيَّ الذي وئدا

وألقتِ الحراب ، ضممتها في جرحى التعب

تنهد رفقتي ــ لما رأوني يومها ــ حسدا

ودقوا أضلع الطرقات مشورة

أشاروا : « كن لها رباً .. وكن صوتا »

فضعت عن المدى الخرب

وعدت إليك ، في العتمات ، صرت صدى

* * *

غداً أمضي غراباً في بيادرهم

فلا أقوى على الطرب

وإن ألقتني الأوهام خلف جدار مقبرةٍ
فلن أقوى على كرجاتهم كأبي .

* * *

أتيتك تائهاً مضنى
ظننت الأمر وقفة ضيفْ
فأغرقني الجنون بظلك اللبقِ
وكل عزائمي أضحت سحائب صَيْفْ
فإن أصرخ بل ابتسمي
وصوتي بعدها سيذوبْ
وإن أصفق ورائي الباب في نزقِ
فلا تثقي
لأن الحب ما أبقى لديَّ دروبْ

الأغنية الثالثة

لَوَ أنَّ الليل فاجأني بحبك بعد نيساني

لو أنا لم نهر التوتَ ، قبل النصج ،

لم نحرق رؤى في ظله الحاني

ولم نترك لعري الريح أشجارَهْ

لما نضبت مآقينا من الهمسات والنجوى

لما أضحت كصوت دون قيثاره

لما انتحبت أغانينا

خواءَ الليل في تشرين دون نجومْ

ودون غيومْ

تركنا جوعنا عرياً

بلا عينين يستر فيهما عاره

سمعتك بعد أن سحبت خطايَ

بصوتْ كأس رنَّ في ألحان

وجاء الليل ، فاجأني بحبك قبل نيساني

* * *

أتيتك مترعاً ..

فرجعت أجوفَ كالمياه سَرَتْ بغير قرارْ

أضعتُ لديك أحزاني

وعدتُ محملاً بالرعب والتعب

ففي عينيك ، خلف الصمتِ ،

خلفَ الليلِ ، لاحَ نهارْ

فأرعبني

وأرعبني خيال شُدَّ فوق جدارْ :

« أراكَ .. أراكَ ..

« هذا كرمي المحروس بالغضب

« أراكَ .. أراكَ .. »

في عينيه مرَّ أبي

فأرعبني

وهز الصمت والأحلام في بدني

وفي عينيه شيء لاح دون ستارْ

أضاء مُشَرَّباً باللوم والعتبِ

هربت .. هربت .. لا ألوي

تركت لديك حرماني .. وأحزاني

لأن الليل فاجأني بحبك قبل نيساني

* * *

نداء الليل شد خطاي للحانات

فاستسلمت للغربه

وتهت بها بدائياً أضاع مع الدجى ربه

وفي الطرقات لاح خيال اخواني

وبين ضجيج حزنهمُ ارتميت ممرّغاً وحدي

فما مدوا إليَّ يدا

نسوا شغبي

ومرت ريح آلامي .. فلم توقظ غناء الأمس في القصب

كأن ملامحي انطفأت

صرختُ .. صرختُ ،

لم أوقظ بهم أحدا

وعبَّ الليل لوعة حزني المحروق بالتعبِ
فلم أسمع لذاك الصوت أيَّ صدى
كأن ملامحي انطفأت
فما عرفوا رفيق أزقة ورفيق أحزانِ
لأن الليل فاجأني بحبك قبل نيساني

الجـدران

كلما أوغلت في عينيكِ بحثاً عن عزاءْ
تعتريني رعشة كالموت في قلبي
ويبكي في مآقيَّ الشتاء
تنبع الأصوات حمرا من شراييني
وشيء مبهم يمتص من حلقي النداء
حولي عينيكِ ،
ان الحزن يسريُ منهما نحوي كتيارٍ
ومن دفقـاته يهمي الشقـاء
وعلى جفنيك يدعوني نداء

أخرس النبرة سحري الدعاء

وجهي المطليُّ بالأتعاب دامِ

كلما حاولت أن أخطو إليكِ

صدني سور زجاج .

* * *

تنبع الأصوات حمرا من شراييني

وشيء مبهم يمتص من حلقي النداء

غير أني سأنادي

فلعلي أتخم الصمت دعاء

عل صوتاً يقحم الأسوار ، يسري في الزجاج

يسحب الدهشة من وجهي إليك

(دهشة دائمة قد غرزت فيه فباتت كالقناع)

وخيول الزمن المجنون هوجاء ،

غبار الدهشة البلهاء تذروه عليه

لم يجد وقتاً لتمسيح الغبار

ذابت الدهشة كالملح وشابت عرق الوجه ،

فخلته ستار

وجهي المطلي بالأتعاب يهفو ليديك

عله يغفو لديك

متعب في صحبتي من ألف جيل

هائم كالريح من دنيا إلى دنيا وراء المستحيل

قطرة النوم ، إذا جاءته يغفو

مثل لص هارب يسمع أصوات الكلاب

قبل أن يستيقظ يعدو

صار لايغفو ، ومثلي لايفيق

هائم مثلي في كل طريق .. هارب من كل دار

قافزٌ دوماً ورائي من قطار .. لقطار

نبتت فيه ظلال السهر الصفراء ،

لم تلق حصاداً بيديك

عندما يدنو لديك

هارباً مني إليك

أمسكيه .. واصفعيه

علهُ يصحو قليلاً فينام

قبل أن يدرك جدران الحصار

* * *

من ترى ألقاك في دربي؟

لماذا كلما حدقت في عمريَ ، يبكي

في دمي طفل وماض ودوار ؟

ذلك الماضي رأى عينيكِ في حلمي ، فأجهشنا

ولكن لم يكن عندي دموع

حينما نُفْجع نشتاق لدمع ..

نحن ، منذ البدء ، للدمع نجوع

غير أن اليوم كالومض يولي

ليته يكفي لبحث وهروب ولذكرى ودموع

آه لو يمتد هذا اليوم ساعات لنكفي ذلك الماضي بكاء

ذلك الماضي رأى عينيكِ في حلمي .. فثار

شدني بين يديه ..

ثم طار

ورياح الحزن أدنته إليك

جاء كي يغفو ، كي ينجر جيلاً دامعاً بين يديك

غير أن الليل أقصاه مرار
ومراراً صده عنك جدار

* * *

مرة يوم التقينا ..
ومشينا
خلت اني أحضن الكون وأجنيك طيوب
فأضيئت وسط أحلامي دروب
ومشينا .. وركضنا
مثل طفلين لنجتاز الصحارى
بغتة .. لم أدر ما أوقفنا في وسط الدرب حيارى
في ظلام الحيرة البلهاء تاهت كفي العمياءُ ،
كي تسأل كفيك طريقاً لكلينا
صرخت في الليل ـــ لاصوت لديها ـــ

«أترى نحن بعيدان هنا منذ أتينا؟»

صدها عنك جدار أخرس

وامتص ذاك الصوت منها

فتهاوت

وبكينا

الراعي الكذاب

قصة بين قرانا والسماء

يقطف الأطفال في الليل جناها

عن قطيع في الجبال البكر تاها

تزهر القصة خوفاً

عندما تنتحب الوديان في ليل الشتاء

« كان .. يا ما كان .. »

يطوي الموقد المقرور أسرار الحكايه

كانت القصة زادي في ليالي الغربة العمياء ،

كانت لي مناره

« كذب الطفل ، وألقى عفن الأجيال عنهم
ثم لموه صباحاً ــ ياخساره
كان في الوادي صريع »

* * *

عدت في هذا الشتاء
لم يكن في البيت موقد
كانت الريح انتحاباً بين أحضان العراء
غير أني لم أجد في البيت موقد
رغم ماناحت على البيت السماء
قال لي طفل رضيع
وأنا في عتبة الباب غريب
عن وجوه نشرت فوق الجدار :
لم يعد في بيتنا الغافي حكايا

ذلك الطفل الذي خان الوصايا
والذي ساروا لباب الدار بعده
والذي مزّق عن جبهته تلك الستاره
حمل السلم بالعرض وألقى
بين فتيان القرى بذرة ردّه
عندما نادى ولم تحضره نجده
قتل الذئب وحملان القطيع
وكلاب الحي مازالت ضحايا
تقلق الليل نباحاً ..
ومع الفجر تضيع
قيل يمشي والخطى في الدرب ميلاد ربيع
كان في عينيه إيماء بشاره
قيل في عينيه حلم خافق .. قيل : مناره .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	٥	بحث	بحيث
٣٦	٤	عيرت	عبرت
٦٧	١	أمتي	أمي
١٩٣	١	جنوني	جفوني
١٠٥	٤	وألقت	وألقيت
١٠٦	٧	بل	بك
١٠٧	٢	النصج	النضج
١٠٨	٥	ألحان	الحان
١١٠	١٠	توفظ	توقظ

الفهرس

الصفحة

كلمات أخرى

صدر عن وزارة الثقافة

في

سلسلة الشعر

زهرة النار	عبد الكريم الناعم	١٠٠ق.س
فواكه رجعية	الياس فرحات	١٠٠ق.س
أغان صيفية	د . أحمد سليمان الأحمد	١٨٠ق.س
درب الواحة	علي كنعان	١٠٠ق.س
حبات زمرد	شفيق المعلوف	١٥٠ق.س
ديوان الشاعر المدني	قيصر سليم خوري	١٠٠ق.س
قال الراوي	الياس فرحات	١٢٥ق.س

للمؤلف

المخاض (مسرحية شعرية) مطبعة الجمهورية دمشق ١٠٠ق.س

١٩٦٧/١١/١٥٠٠

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

ممدوح عدوان واحد من أبناء هذا الشعب يتحد به حميمياً كما تتحد جذور النخلة بتربتها يروي ببساطـــة وعفوية قصة شعب شردته أيدي « لقطاء » .

وممدوح عدوان شاعر ، تتحول الفكرة عنده الى صورة ، والصورة الى لوحة ، أبعادها أبعاد « النكبة » القومية والانسانية .

وممدوح عدوان شاعر عربي يرى في تفتح أمته تارة برعماً هبت عليه الأعاصير من كل جانب تهدده بالفناء ، وتارة « قوة » تعبر الليل كالرعد ، لتؤكد استمرارها في الوجود ، وتارة ايضاً صراعاً بين القديم والحديث ، يتجاذبها تياران قاهران ، الواحد يشدها الى الوراء ، والثاني الى الأمام .

وقد يعجبك أكثر ما يعجبك في شعره القدرة على الرؤية ، فهو يحول النكبة ومعها مأساة أمته الى صور تتحرك أمامه وأمامك كما تتحرك الأحداث على شاشة السينما ، ومع ذلك تتحد معه ومعك لأنها وجوده ووجودك .

فهو من أدباء هذه الأمـــة بين قلة قليلة تعرف كيف توفق بين الأصالة والتجديد (معنى ومبنى) .

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي
دمشق ١٩٦٧

سعر النسخة
١٢٥ ق.س